الفصل الرابع

الرحلة إلى الممدوح

لقد قام المدح بين فنون الأدب العربي مقام السجل الشعري لجوانب تاريخية من حياة الجاهلين، وعلى الرغم من ذلك فإنه كان قليلاً عند شعراء المعلقات. وليس هذا غريباً لأن أكثر أصحابها كانوا من السادة الأشراف، أو من الفتيان أولي البأس الشديد ،فقد يأنف أحدهم أحياناً أن يقول الشعر رغبة في كسب أو عطاء، ولكنه في أحيان أخرى يحن إلى مجالسة الملوك وعطايا الوزراء؛ لينال بذلك شرفاً عظيماً بين أبناء عشيرته.

ولعل مفهوم المديح عند ابن قيبة ظل سائداً في كتب النقد الأدبي القديم، حيث وضح - في نصه المشهور - نموذجاً لقصيدة المدح.. فالشاعر يبدؤها بالوقوف على الأطلال، ثم يتبعه بذكر النسيب؛ ليميل نحوه القلوب، وليستدعى به إصغاء الإسماع إليه، "فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له، عقب بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر، وسرى الليل، وحر الهجير وإنضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير، بدأ في المديح، فبعثه على المكافأة، وهز للسماح، وفضله على الأشباه، وصغره في قدره الجزيل. فالشاعر

المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر، ولم يطل فيمل السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد"[١].

وقد يبدو أن قول ابن قتيبة لا ينطبق على القصيدة الجاهلية العامة، أو التي يكون موضوعها الرئيسي مدحاً. فالمدح له أغراض متعددة، لا يقتصر على رغبة المادح في طلب المال أو نيل المكافأة - بعكس ما وضح ابن قتيبة - "وبهذا الفهم نستطيع أن ندرك خطأ نقادنا القدامى حين زعموا أن المدح له أساليب معينة، وقوالب ثابتة، وأنماط لا يعدوها الشاعر. إذا الحق أن لكل قصيدة في المديح نمطاً خاصاً، وسبيلاً لغوياً يبتدعها الشاعر لأنه أسير تجربته، وقيد حالة خاصة"[٢].

وهذا يتضح جلياً في ديوان طرفة بن العبد، "فإنه لم يمدح بطلب المال، وإنما للشكر على نعمة، أو للمساعدة على رد الحقوق، والأبيات التي جاءت له في المدح نتف متناثرة، فلم تجئ له قصيدة كاملة في المدح، ومدحه مقتضب وموجز، ليس فيه إسراف أو مبالغة أو خروج عن الحقيقة، ولم يصل إلى حد الوصف بالأوصاف التي رددها في الفخر. مما يدل على شدة اعتزازه بنفسه حتى لم يرض أن يرفع غيره عليه مهما كان[٣].

وهكذا كان بناء قصيدة المدح - في نص ابن قتيبة - مثاراً للنقاش والجدل لدى بعض النقاد المحدثين؛ ولذلك يقول أحدهم: "وحديثاً عن بناء القصيدة والانتهاء بأنها لا نجد لها بناء مضطرداً أو موحداً في العصر الجاهلي على عكس ما ذكر ابن قتيبة، وما وافقه عليه بعض العلماء، والذي أدى إلى تصور بعض الدارسين في عصرنا تصورات متعددة لطبيعة هذا البناء وإقامة أحكام، وإطلاق ظنون وتخيلات وتفاوتت بين الأغراب والخروج على طبيعة النص في القصيدة الجاهلية"[٤].

---

(١) الشعر والشعراء، ج١، ص٧٤، ٧٥.

(٢) عباس بيومي عجلان: عناصر الإبداع في شعر الأعشى، نشر دار المعارف ١٩٨١، ص ١٤٤.

(٣) د. علي الجندي: ديوان طرفة بن العبد، ص ٢٧٨.

(٤) مدخل إلى بيئة الشعر الجاهلي، ص ١٣٩، ١٤٠.

وتذهب الباحثة الألمانية "رينا تاياكوبي" أيضاً إلى أن وصف ابن قتيبة لا يناسب القصيدة الجاهلية، وإنما يمكن تطبيقه فقط على نمط واحد من عدة أنماط طورها الشعراء الأمويون. أما في أيام ابن قتيبة نفسه فكان هذا النمط من قصيدة المدح قد هجره الشعراء "فابن قتيبة يتحدث عن الجزء الخاص بالناقة في وصفه لأقسام القصيدة من حيث هو جزء طبيعي يأتي بعد الوقوف على الأطلال والنسيب وقبل المدح[١].

من هنا يبدو أن مفهوم رحلة الشاعر إلى الممدوح ليس واضحاً بعد، فلا أظن أن كل مديح رحلة؛ لأن الشاعر قد يصف ممدوحه دون أن يبرح مكانه؛ولذلك فإن البحث يعني بشعرالشاعر الذي أنشده خلال انتقاله عبر الصحراء الجرداء التي قاسى فيها أهوالاً شداداً مع ناقته التي أضناها بعد السفر ومشقة الرحيل للوصول إلى ممدوحه لينال مأربه الذى رسمه لنفسه قبل أن يصل إليه.

ولا شك أن الأسباب التي دعت الشاعر للقيام بالرحلة إلى ممدوحه قد تعددت.. وليس من الإنصاف أن يكون الدافع الأساسي للشاعر مادياً فقط، كالبحث عن طلب الهدايا واستجداء عطايا السلطان. فقد يكون الدافع إليها معنوياً أيضاً، حيث يرى الشاعر في ممدوحه المثل والقدوة في أخلاقه أو في شخصيته، فالتعبير عنها قد يشير إلى أن تلك الصفات كائنة في شخص الشاعر.

وقد يرى الشاعر أن طرق باب الملوك وحط العطايا على أبوابهم مفتاحا وفرجا له من كل هم أحيط به أو بقومه، حيث يجد نصرة عندهم لظلمته، وسداداً له على طريق الرفعة والازدهار[٢].

وقد تتلخص دوافع الرحلة إلى الممدوح في:

١- الدافع الاجتماعي

٢- الدافع السياسي.

---

(١) مدخل إلى بيئة الشعر الجاهلي، ص ١٣٩، ١٤٠.

(٢) الباحثة ريناتا ياكوبي: مقالة، الجزء الخاص بالناقة في قصيدة المدح، تعليق د. حسن البنا، مجلة فصول، المجلد الرابع، العدد الرابع، القاهرة ١٩٨٤، ص ٢٩٨، ٢٩٩.

١- الدافع الاجتماعي :

إن الظروف التي أحاطت بالإنسان الجاهلي كانت قاسية عليه، حيث الفقر المدقع في تلك الصحراء الجرداء، ونضوب موارد الماء، وفقد الصناعات، وندرة البساتين والغياض؛ لذلك كثر المحتاجون وقل الأغنياء، فنشأ في نفوسهم الرفق والعون وحماية الجار. وسارت في القبائل سيرة الكرماء والأجواد، والسادة الزعماء، والوجهاء والمصلحين. فعندما رحل الشعراء إلى الملوك ورأوا الترف والنعيم كان عليهم أن يركنوا إلى جانب هؤلاء الأمراء، فيستريحوا من عناء السفر ومشقة الرحيل وظلم البادية لهم، وقد أعدوا للأمر عدته، حيث المقطوعات الشعرية التي تحوي أعذب الألفاظ، وأجمل الأساليب، وأروع الصور البلاغية.

ولقد رسم الشاعر المادح نواحي من أعمال الملوك، وسياسة الوزراء، وشجاعة القواد، وثقافة العلماء؛ فأوضح بذلك بعض الخفايا، وكشف عن بعض الزوايا، وأضاف إلى التاريخ - صدقاً أو كذباً - مالم يذكره؛ فساعد على إبراز كثير من الصفات والألوان لم تكن تعلم لولاه، وزاد في شهرة أناس كثيرين أحاطهم بالرعاية، ورفعهم إلى الذروة، وأغفل زملاء لهم كانوا أحق بالذكر وأجدر بالشهرة. ولكنها الحظوظ يوزعها الشعراء كيفما شاءوا[١].

وفي ذلك يقول النابغة الذبياني مادحاً النعمان بن المنذر:[٢]

فلما أن رأيتُ الدَّارَ قَفْراً ... وخالَفَ بالُ أهلِ الدارِ بالِي
نهضْتُ إلى عُذافِرَةٍ صَمُوتٍ ... مُذكَّرةٍ تَجلُّ عن الكَلالِ
فِداءُ لامْرِئ سارتْ إليه ... بعذْرَةِ رَبِّها عَمِّي وخْالِي
ومن يُغرِفْ من النُّعمانِ سَجْلاً ... فليس كمن يُتيَّهُ في الضَّلالِ
لما أغفلتُ شُكْرَكَ فانتصِحْني ... وكيف ومن عَطائِكَ جُلَّ النِّقالِ

(١) د. سامي الدهان: سلسلة فنون الأدب العربي – المديح - نشر دار المعارف، بدون تاريخ، ط ٤، ص ٥، ١١، ١٢.

(٢) الديوان، ص١٥٠، ١٥١، ١٥٢.

وهذا أيضاً الأعشى في حواره مع ابنته التي تخاف عليه مخاطر الطريق في رحلاته التي لا تكاد تنتهي. فإذا به يبين لها مقصده من رحلاته، حيث طلب المال، وإشباع حاجات النفس ورغباتها.

وفي ذلك يقول:(١)

تقــولُ ابْنتِــي حِــينَ جَــدَّ الرحيــلْ أَرَانــا ســواءً ومــنْ قــد يَــتِمْ
أَبَانـــا فـــلا رِمْـــتَ عِنـــدِنا فإنَّـــا بخـــيرٍ إذا لم تَـــرِمْ
ويـــا أَبتَـــا لا تَـــزَلْ عِنْـــدِنا فإنـــا نخَـــافُ بـــأن تُخْتَـــرَمْ
أرانـــا إذا أضْـــمَرَتْكَ الـــبلا دُ نَجْفَــي وتُقْطَــعُ منــا الــرَّحِمْ
أفي الطَّــوافِ خِفْــتِ علــيَّ الــرَّدى وكـــمْ مـــن رَدٍ أهْلَـــه لم يَـــرِمْ
وقـــد طفْـــتُ للمـــالِ آفاقَـــه عُمَـــانَ فَحِمْـــصَ فـــأورِ يـــشَلِمْ
أتيـــتُ النَّجاشِـــيَّ في أرْضِـــهِ وأرْضَ النبـــيطِ وأرْضَ العَجَـــمْ
فنجْـرَانَ فالـسَّرْوَ مـن حِمْيَـر فـــأيَّ مَـــرامٍ لـــهُ لَـــمْ أَرُمْ
ومـــن بعـــد ذاكَ إلى حـــضْرَمْوتَ فأوفَيْـــتُ همـــي وحينـــاً أهُـــمْ

ويمدح الأعشى أيضاً "هوذة بن علي الحنفي" مرجياً نواله وعطاءه، فيقول:(٢)

إلى هَـوذَةَ الوهَّـابِ أهـديْتُ مِـدْحَتِي أُرَجَـى نـوالاً فاضِـلاً مـنْ عطائكَـا
تَجَـانَفُ عـن جُـلِّ اليمامـةِ نـاقتِي ومـا قَصَدتْ مـن أهْلِهَـا لِسِوائِكَا
ألمَّـتْ بـأقوامٍ فعافَـتْ حياضَـهُمْ قَلُوصي وكان الشَّرْبُ منها بمائكَا
فلمـا أَتَـتْ آطـامَ جَـوٍّ وأهْلَـهُ أُنيخَـتْ وألْقَـتْ رَحْلَهَـا بفنائِكَـا
ولم يسْعَ في الأقـوامِ سـعيَكَ واحـدٌ ولـيس إنـاءُ للنْـدى كإنائِكَـا
سَمِعْتُ برحْبِ الباعِ والجُود والنَّدى فأدْلَيْـتُ دَلْـوِي فاسْتَقَتْ برشائِكَا
فَتـىً يحمِلَ الأعبـاءَ لـو كـان غيرُهُ من النَّاس لم ينْهَضْ بها مُتَمَاسِكَا

(١) الديوان، ص ٩١.

(٢) الديوان، ص ١٣٩، ١٤١.

إلى قوله:

ومــا ذَاكَ إلا أنَّ كَفَّيْـكّ بالنَّـدى تَجُـودان بالإعطـاءِ قبـلَ سُـؤالِكَا

٢- الدافع السياسي:

وقد لا يدفع الشاعر مال أو سلطان نحو ممدوحه، بل تدفعه المسئولية السياسية التي يقوم بها في قبيلته، فهو لسانها الذي يتحدث نحو القيام بمطالبها.. وفي الوقت نفسه يكون سيدها وزعيمها يوجهها ويؤثر في سياستها، فقد يلجأ إلى معاون له في الخير فلا يرى إلا ملكاً تحني له الجباة تعظيماً وتقديساً لقدره وأبهته حتى يرد له ولعشيرته كل مظلمة ضاعت لهما في دار الحرب.

فهذا امرؤ القيس يرحل إلى ملك الروم ليستنجد به على بني أسد رغم مقدرته على الاستعانة بقومه من أرض حمير باليمن، لكنه أراد الظهور والاستعلاء ونيل الشرف في مشاركة ملك الروم له.

وفي ذلك يقول بعدما استصحب في سفره عمرو بن قمينة اليشكري:[١]

ولو شاءَكان الغزْوُ من أرْضِ حِمْيرٍ ولكنَّـه عمْـداًإلى الـرُّوم أنْفَـرَا

بَكَى صاحبي لَمَّا رأى الدَّرْبَ دُونَه وأيْقَـنَ أنَّـا لاحِقَـانِ بقَيـصَرا

فَقلـتُ لـه لا تبـكِ عينُـك إنَّمـا نُحـاوِلُ مُلْكـاً أو نَمُـوتَ فَنعْـذَرَا

أما زهير بن أبي سلمى فهو معجب بصنيع (الحارث بن عوفان وهرم بن سنان) في الصلح بين قبيلتي عبس وذبيان، وظل متعرفاً لهما بحسن ما صنعا. وهنا يمجد سنان بن أبي حارثة بعد أن عزم عزماً أكيداً على الرحيل إليه. ومن خلال مدحه له يحذر قبيلتي (بني وائل، وجديلة) من غزو فرسانه، فهو شديد البطش بمن أراد قتاله:[٢]

(١) الديوان، ص ٦٥، ٦٦.

(٢) الديوان، ص ١٩٢، ١٩٣.

إليــــكَ سِـــنانُ الغـــداةَ الرَّحيــــ ـلُ أُعـصِي النُّهـاةَ وأُمـضِي الفُـؤولا
فـــلا تَـــأمّنِي غـــزْوَ أفراسِـــهِ بَنِـــي وائـــلٍ وأرْهِبيْـــه جَـــدِيْلا
وكيــفَ اتّقــاءُ امِــرئ، لا يــؤُو بُ بـالقومِ في الغَـزوِ حتـىَّ يُطـيلا؟

وأما الأعشى فهو يمدح سلامة ذا فائش بن يزيد بن مرة الذي امتطى له الأعشى ناقته تشق ما يعترض طريقها من أرض غليظة، ماضية في طريقها لا تلوي على شيء، حتى تبلغ ميعادها المقصود، وفيها يحذر "حمير" من ملاقاة ممدوحه، حيث لا طاقة لهم اليوم بحربه، ولكن عليهم أن يجنحوا للسلم الذي هو خير لهم؛ وفي ذلك يقول:(١)

تَـــــؤُمُّ سَـــــلامَةَ ذا فـــــائشٍ هُـــوَ اليَـــومَ حَـــمٌّ لِمِيْعادِهـــا
وكــمْ دُونَ بيتِــكَ مــن صَفْـصَفٍ وَدَكْـــداكِ رَمْـــلٍ وأعْقَادِهـــا
فـــإن حِمْيَـــرُ أصـــلحتْ أمْرَهَـــا وملَّـــــتْ تَـــــسَاقِيَ أولادهَـــــا
وُجِـــدْتَ إذا أصْـــلَحُوا خيرَهُـــمْ وَزَنْــــدُكَ أثْقَـــبُ أزْنَادِهَـــا

ولكن الأعشى يجمع بين غرضيه - حب المال، وتحذير القبائل من بطش ممدوحه - حينما يركب ناقته لقيس بن معد يكرب، قائلاً:(٢)

فَلَـــاَ تـــشْتَكِنَّ إليَّ الـــوَجى وطُـولَ الـسُّرَى واجْعليـهِ اصْـطبِارَاً
تُلاقِـــيْنَ قيـــساً وأشْـــياعَه يُـــسعِّرُ للحـــربِ نـــاراً فَنَـــاراً
فإنّــــكِ طالِبــــةُ شـــاوَه وإنَّــكِ صــائرةُ حيــثُ صَــارا

ثم قال:

فـــإن الـــذي يُرْتَجـــي سَـــيْبُه إذا مـــاَ نحُـــلُّ عليـــهِ اخْتِيَـــارا
أخُـــو الحـــربِ إذْ لقِحَـــتْ بـــازلاً سمـــا للعُـــلا وأحـــلَّ الجِمَـــارا

(١) الديوان، ص ١٢٣.

(٢) الديوان، ص ٩٧، ٩٩.

وســـاوَرَ بـــالنَّقعِ نِقـــعِ الكثيـــ بِ عبْـــساً ودُودانَ يوْمـــاً سِـــوَارَا
فأقْلَلْـــتَ قومـــاً وأعمْـــرَتهُمْ وأخْرَبْتَ مِنْ أرضِ قـــومٍ ديَـــارا

فليس غريباً - بعد ذلك - أن يشق الشاعر على نفسه بالرحلة إلى هؤلاء الذين منحوا الغنى والشجاعة والقوة والفهم؛ فيقف منهم موقف الاحترام والتودد.. فبذكائه استطاع أن يبسط قضيته في أجمل أسلوب وأروع خيال ليعود إلى عشيرته محققاً الفوز على خصومه أو خصوم ذويه. وقد يتضح كل هذا بعد دراسة العناصر الأساسية التي شكلت صورة الرحلة إلى الممدوح عند شعراء المعلقات؛ ومن أهم هذه العناصر:

١- وصف الناقة
٢- وصف الصحراء ومشقة الرحيل
٣- وصف الممدوح

١- وصف الناقة:

لا شك أن وصف - شعراء المعلقات - للناقة ليس غرضاً مستقلاً يسعى إليه الشاعر مباشرة، بل يأتي في أعقاب موقف يمثل أزمة نفسية للشاعر، لا يجد لها مخرجاً سوى أن يركب ناقته وينطلق بها. ولكن أحداً من شعراء المعلقات قد يستهوي وصف الناقة التي يمتطيها أثناء رحيله إلى ممدوحه، وكأن الناقة قد أصبحت عنده همزة الوصل بين أزمة نفسية يعيشها وأمل يترقب خطوات الوصل إلى تحقيقه، كالوصول إلى ممدوحه؛ ليبتغي منه نفقاً، أو ينال منه ذكراً، كما بين البحث منذ قليل.

والدليل على ذلك أن الشاعر قبل أن يبدأ رحلته إلى ممدوحه لابد أن يعلن عن حالة التأهب والاستعداد لركوب ناقته القوية التي تجسر على السير والهول؛ فتقطع السهل والوعر في وقت الظهيرة وتوهج الحر. فحينما عمد إلى ملك الروم مع صاحبه إذ به يمتطي ناقته التي يكون لها أثر في نفس ممدوحه، فكان حقاً

عليه أن يصفها بقوله:[١]

فـدعْ ذا وسـلِّ الهـمَّ عنـك بجـسرَةٍ ... ذَمُـولٍ إذا صـام النَّهـارُ وهجَّـرا
تُقطِّـعُ غيطانـاً كـأنَّ متُونهـا ... إذا أظهـرتْ تُكْـسَى مُـلاءً مُنـشَّرا
بعيـدةً بـين المنْكِـبينِ كأنَّهـا ... ترى عند مجْرى الضَّفِرْ هِـرًّا مُشَجرًّا

أما النابغة الذبياني فيصر على ركوب ناقة قد اعوجت وانحرفت عن حالها إلى الهزال لطول السفر حينما قصد النعمان بن وائل بن الجلاح الكلبي. وركوبه الناقة هذه المرة لم يأت عقب موقف قد مثل أزمة نفسية للشاعر بل عمد إلى وصف ناقته أثناء رحيله إلى ممدوحه كي يشكره على ما أنعم به عليه، حيث أطلق سراح ابنته "عقرب"، وسبى عطفان وأسراهم؛ فقال في ذلك:[٢]

فلابُـدَّ مـن عوْجـاءَ تهْوى براكـبٍ ... إلى ابنِ الجُلاحِ سيْرُها الليلَ قاصِدِ
تَخُـبُّ إلى النُّعمـانِ حتـى تَنالَـه ... فِدَى لـكَ مـن ربٍّ طريْفِـي وتالِـدِي
فسكَّنْتُ نفسي بعدما طار رُوحُها ... وألْبَـسْتَنِي نُعْمَـي ولـستُ بـشاهِدِ

ويقول أيضاً:[٣]

نَهـضْتُ إلى عُـذافِرةٍ صَـمُوتٍ ... مُـذكَّرةٍ تَجِـلُّ عـن الكَـلالِ
فـداءُ لامـرِئً سـارتْ إليـه ... بِعـذْرةِ رَبِّهـا عَمِّـي وخـالِي

وأما زهير بن أبي سلمى فيمر على ناقته دون أن يعيرها اهتماماً؛ فلعل وصف الممدوح قد شغله عن وصف ناقته التي يرحل عليها إلى الملوك والأمراء؛ وفي ذلك يقول مادحاً هرم بن أبي حارثة المرى:[٤]

---

(١) الديوان، ص ٦٣، ٦٤.
(٢) الديوان، ص ١٤٠.
(٣) الديوان، ص ١٥٠، ١٥١. انظر كذلك صفحة ٢١٢، ٢١٥.
(٤) الديوان، ص ١٨٦، ١٨٧.

إلى هَــرِمٍ تهجيرُهـــا ووســـيجُها تَــرُوحُ مــن الليــلِ التَّمــامِ وتغْتــدي
إلى هَـرِمٍ ســارتْ ثلاثـاً مـن اللِّـوَى فـــنِعْمَ مـــسيرُ الواثـــقِ المُتعمِّـــدِ

ويقول أيضاً في مدح سنان بن أبي حارثة:(١)

إليـــكَ سَـــنانَ الغَـــداةَ الرحيــــلُ أَعصِي النُّهـاةَ وأُمضِي الفُؤولا
فـــلاَ تـــأْمَنَي عَـــزْوَ أفراســـه بَنِـــي وائـــلٍ وأرهَبِيـــهِ جَـــديْلا
وكيـــفَ اتِّقـــاءُ امـــرئٍ لا يـــؤُو بُ بـالقوم فِي الغـزوِ حتى يُطيلا؟
بِـــشُعْثٍ مُعطَّلَـــةٍ كالقـــسِـــيِّ غــزوْنَ مخاضـاً وأُدِّيْـنَ حُـولا

وكذلك الأعشى يشق طريقاً آخر في صورة الرحيل إلى الممدوح، حيث لا يبدأ بركوب الناقة، بل يعلن عزمه على السفر، ثم ينصرف إلى وصف الصحراء؛ فيصورها في رهبتها المفزعة وسكونها المخيف حتى يخلص إلى وصف ممدوحه، فيصفه لما هو أهل له.

وفي ثنايا ذلك الوصف يفرد لناقته بيتاً أو بيتين على الأكثر. وكأن ممدوحه قد شغله عنها، مثلما انشغل به زهير من قبله عن ناقته.

ولذلك يقول الأعشى بعد وصفه للصحراء التي يعبر بها إلى ممدوحه قيس بن معد يكرب:(٢)

إلى المْــرءِ قَــيْسٍ أُطيــلُ الــسُّرَى وآخُــذُ مِــنْ كُــلِّ حَــيٍّ عُــصُمْ

إلى قوله:

وإدْلاجِ ليـــــل علـى خِيْفَـــــة وهاجِـــرَةٍ حَرُّهـــا يَحْتَـــــدِمْ

وقد تبدو ملاحظة مهمة في وظيفة جزء الناقة لدى زهير والأعشى، حيث

(١) الديوان، ص ١٩٢، ١٩٣.

(٢) الديوان، ص ٨٧، وانظر كذلك، ص ١٢٣، ١٣٩، ١٤٧، ٢١٥، ٢٣٩.

استبدل الشاعران بوصف الناقة وصفاً لرحلتهما عبر الصحراء إلى الممدوح. "لكن في البداية كان هذا الوصف للرحلة يحتفظ بعناصر من وصف الناقة؛ ويعد هذا أول مراحل الانتقال من القصيدة القبلية إلى قصيدة البلاط"[١]. ومن هنا تبدو أهمية ترتيب الشعراء ترتيباً تاريخياً - حسب تاريخ الوفاة - كما أشار البحث إلى ذلك.

ومن ذلك يتضح أن الناقة مركب العربي إلى البقاع النائية، وصديقته الطيعة في الحل والترحال، فهي صبور على الجدب والجفاف، يطلقها في البادية فتكتفي بما تجد من عشب، وتصبر على الظمأ أياماً[٢]. فليس غريباً على الشعراء أن يخصوها بالذكر أثناء حلهم على العموم، وفي ترحالهم على وجه الخصوص، قل هذا الذكر أو أكثر، حسب ما يتراءى لكل شاعر.

٢- وصف الصحراء ومشقة الرحيل:

إن وصف الشعراء للصحراء التي يرهبون جانبها كان عنصراً مهماً من عناصر هذه الرحلة، وإن اختلف عرضهم لهذا الوصف في شعرهم. فمن شعراء المعلقات من جعلها مقدمة لرحلتهم: كزهير بن أبي سلمى، الأعشى. ومنهم من جعلها في الترتيب الثاني بعد وصفهم للناقة، كالنابغة الذبياني.

فامرؤ القيس بعد أن ركب ناقته إلى ملك الروم وصف عقبات الطريق التي تسير فيه ناقته قال:[٣]

تُطـايُر ظُـرَّانَ الحَـصَى بمناسِـمٍ ... صِلابِ العُجَى ملثومُها غيرُ أمْعَرا
كـأنَّ الحَصَى مِن خلْفِها وأمامِها ... إذا نَجلَتْـه رِجْلُهـا خُـذْفُ أعْـسَرَا
كأن صليـلَ المَرْوِحينَ تُطيـرُه ... صَليـلُ زَيوفٍ يُنْتَقْـدن بعبقرا

(١) الباحثة ريناتا ياكوبي: مقالة، الجزء الخاص بالناقة في قصيدة المدح، ص ٢٩٩.
(٢) أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص ٧٩.
(٣) الديوان، ص ٦٤.

وتتضح الصورة عند الأعشى اتضاحاً لا مثيل له بالنسبة لشعراء المعلقات الذين تعرضوا لهذه الرحلة. حيث وصف الصحراء الجرداء وما يتخللها من وحوش ضارية تعوي في دجى الليل الذي لم يأذن بصبح جديد. ولذلك يقول في رحلته لقيس بن معد يكرب:(١)

تيمَّمْتُ قيساً وكَمْ دُونَه ... من الأرضِ من مَهْمَهٍ ذي شَزَنْ
ومِنْ شانِئٍ كاسفٍ وجْهُهُ ... إذا ما انتسبْتُ له أنْكَرَنْ
ومن اَجِنٍ أوْلجَتْهُ الجنُو ... ب دُمنةَ أعطانِهِ فانْدَفَنْ
وجارٍ أجاوِرُهُ إذْ شتو ... تُ غيرِ أمينٍ ولا مُؤْتَمَنْ
ولكنَّ ربِّي كفى غُرْبَتي ... بحمْدِ الإلهِ فقدْ بَلَّغَنْ

ويقول أيضاً في مدح قيس:(٢)

إلى المرءِ قيْسٍ أُطيلُ السُّرى ... وأخُذُ من كُلِّ حَيٍّ عُصُمْ
وكم دُون بيتِكَ من معشَرٍ ... صُبَاةِ الحلُوم عُداةٍ غُشُمْ
إذا أنا حَيَيْتُ لم يرْجعُوا ... تحيَّتَهُم وُهُمُ غيرُ صُمْ
وإدْلاجِ ليلٍ على خِيْفَةٍ ... وهاجِرَةٍ حَرُّها يَحْتَدِمْ

وهو أيضاً لا يزال يستخدم "كم الخبرية" ليدل بها على ما قاساه في الصحراء التي عميت مسالكها على السالكين، وليشير أيضاً إلى بعد المسافة التي بينه وبين ممدوحه - سلامة ذا فائش بن يزيد - حيث الرمال المنعقدة والمتراكمة؛ وصوت البوم الذي يفزعه، إذ ينعق في ظلام الليل البهيم، فيزيد في وحسته وروعته، وفي ذلك يقول:(٣)

(١) الديوان، ص ٦٩.
(٢) الديوان، ٨٧.
(٣) الديوان، ص ١٢٣، وانظر كذلك ص ٢١٥.

وكَـمْ دُونَ بيتِـكَ مِـن صَفْصَفٍ ودكْـداكِ رمْـلٍ وأعْقادِها
ويهْمـاءَ بالليـلِ غَطْشَى الفـلاةِ يُؤْنِـسُني صـوْتُ فيّادِها
ووضْـعِ سِـقَاءٍ وأحْقابِـهِ وَحَـلِّ حُلُـوسٍ وإغْمادِها

٣- وصف الممدوح

ولكي تكتمل خطوط هذه الرحلة، كان على الشاعر وصف ممدوحه بما تروق له النفس، ويستعذبه اللسان، إما بدافع الحب الذي يجمع بينهما، وإما بدافع الهبات والعطايا التي ينتظرها منه.

فزهير بن أبي سلمى كان من أبدع شعراء المعلقات وصفاً للمدوح، حيث قال مادحاً "هرم بن أبي حارثة" في سبعة عشر بيتاً في إحدى قصائده؛ ومنها قوله:[١]

إلى هَـرِمٍ تهجيرُهـا ووسِـيْجُها تَـرُوحُ مـن الليـلِ التَّمـامِ وتَغْتَـدي
ألـيسَ بـضرَّابِ الكمُـاة بـسيْفِهِ وفكّـاكِ أغـلالِ الأسـيرِ المُقيَّـدِ؟
ألـيس بفيَّـاضٍ، يـداهُ غمامُـةُ ثمـالِ اليتـامَى في السنينَ مُحمَّـدِ؟
إذا ابْتَـدَرتْ قـيسُ بـنُ عَـيلانَ غايـةً مـن المجـدِ، مـن يَسبِقْ إليها يُسوَّدِ
سـبقت إليهمـا كـلَ طلـق مـبرز سـبوق إلى الغايـات غـير مجلـد
تَقِـيٌّ، نَقِـيٌّ لم يُكثِّـرْ غنيمـةً بنهكـةِ ذي قُربـى، ولا بِحَقَلَّـدِ
سِـوىَ رُبُـعٍ لم يـأتِ فيـه مخانـةً ولا رهقـاً مـن عائـذٍ مُتَهـوِّدِ

ولقد سلك الأعشى الدرب نفسه في وصف ممدوحه، فبعد أن وصف مصاعب الطريق الذي سلكه إلى الممدوح، إذ به يلحقه بوصف رائع "لقيس بن معد يكرب الكندي" في حوالي خمسين بيتاً شعرياً؛ ومنها قوله:[٢]

---

(١) الديوان، ص ١٨٦- ١٩١.

(٢) الديوان، ص ٦٩- ٧٥.

تيمَّمــــتُ قيـــساً وكـــمْ دونَـــه مِــن الأرض مِــنْ مَهْمَــهٍ ذي شَــزَنْ
أخاثِقَـــــة عاليــــاً كعْبُــــهُ جزيــلَ العطـــاءِ كـــريمَ المِــنَنْ
كـريمـــاً شمائِلُـــهُ مـــن بـــني مُعاويَــــةَ الأكْــــرَمِين الـــسُّنَنْ
فـــإن يتْبَعـــوا أمْـــرَه يَرْشُـــدُوا وإن يـــسْألُوا مَالَــــه لا يَـــضِنْ
وإن يُسْتَـــضافوا إلى حُكْمِــــه يُـــضافُوا إلى هـــادِن قـــد رَزَنْ
هـــو الواهِـــبُ المائَـــةَ المـــصْطفا ةَ كالنَّخْـــلِ زيَّنَهـــا بـــالرَّجَنْ
يَطُـــــوُف العُفُــــاة بأبوابِـــــهِ كطـوْفِ النَّـصارى ببيْـتِ الـوَثَنْ
ويُقْبِـــلُ ذو البــــثِّ والراغبـــو نَ في ليلَـــةٍ هَـــي إِحـــدى اللَّـــزَنْ

إلى قوله في آخر القصيدة:

فَجِئْتُـــك مرتـــادَ مـــا خبَّـــروا ولـــوَلا الـــذي خبَّـــروا لم تَـــرَنْ
فـــلا تحْرِمَنِّـــي نَـــدَاكَ الجزيـــلْ فـــإني امْـــرؤُ قـــبلَكُمْ لم أُهَـــنْ

وفي قصيدة أخرى - للأعشى أيضاً - يصف ممدوحه "هوذة بن علي" في ثلاثة وعشرين بيتاً، بعد أن وصف الصحراء التي يسير بها، والناقة التي يمتطيها؛ ومنها:(١)

إلى مَلِـــكٍ كَهِـــلالِ الـــسَّمَا ءِ أزْكَـــى وفـــاءً ومجْـــداً وَخِيْـــراً
طويـــلِ النِّجـــادِ رفيـــعِ العمـــا دِ يحْمـي المُضافَ ويُعطـي الفقـيرَا
أَهَـــوْذَ وأنـــت امْـــرُؤ ماجـــدُ وبحْـرُك في النـاس يعْلـو البُحُـورَا
مَنَنْـــتُ علـــيَّ العطـــاءَ الجزيـــلْ وقـد قـصَّرَ الـضَّنُّ مِنِّـي كـثِيرَا
فأنـــتَ الجَـــوادَ وأنـــتَ الـــذي إذا مـا النَّفـوُسُ مـلأْنَ الـصُّدُورا

من هنا تكتمل عناصر صورة رحلة بعض شعراء المعلقات إلى الممدوح، وذلك من خلال عرض هؤلاء الشعراء لوصف الناقة، والصحراء، وأخيراً وصف الممدوح.

(١) الديوان، ص ١٤٧، ١٤٩. وانظر كذلك، ص ٢١٥، ٢١٧. وأيضاً ص ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٣.

ومن الملاحظ بعد عرض تلك العناصر أن بعضاً من شعراء المعلقات قد وضح الهدف من رحلته إلى ممدوحه. وليس الهدف من المدح – دائماً - رغبة الشاعر في نيل العطايا والهبات من الملوك "كما ظن لفيف من النقاد أن الدافع للمدح رغبة الأعشى في المال، وحاجته الملحة إليه. وقد يكون ذلك دافعاً، ولكنه ليس الدافع الوحيد. إذ لو أن الأمر كما يظنون لما ألفينا اختلافاً في النظم، وتبايناً في الأسلوب، ولكانت القصائد كلها تغني عنها قصيدة واحدة، ولكن الذي يطلع على الديوان يشاهد تبايناً في اللهجة، وتنوعاً في الأداء، واختلافاً في طرائق التعبير، وما ذلك إلا لاختلاف الدافع، وتنوع التجربة"[(١)].

(١) عناصر الإبداع في شعر الأعشى، ص ١٤٤.